مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (24) – العدد (02) (ديسمبر، 2023) -ص 259- 274
ISSN 1111-5149 /E. ISSN 2430-2588

كتابة الأنثى وقضايا الواقع الاجتماعي

قراءة سوسيو ثقافية لرواية قلب الإسباني لجميلة طلباوي

Writing female and social reality issues

Socio's cultural reading of the Spanish heart novel by Djamila Talbaoui

كلثوم مزياني*[1] ، مخبرالمتخيل الشفوي وحضارات المشافهة والكتابة والصورة جامعة باتنة 1(الجزائر)
kaltoum.meziani@unv-batna.dz https://orcid.org/my-orcid?orcid=0009-0001-9209-0925
نجوى منصوري[2]، جامعة باتنة 1(الجزائر)، nadjoua.mansouri@univ-batna.dz
https://orcid.org/0009-0008-2063-244X

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
2023-11-29	2024-01-28

ملخّص

يعد السرد الروائي الأنثوي فضاء خصبا لطرح مواقف الأنثى من الواقع الاجتماعي المتمثل في العادات والتقاليد، العلاقة بين المرأة والرجل، الهجرة وتحديها للسلطة الأبوية، محاولة منها لإثبات هُويتها وكيانها الفاعل في المجتمع، رغبة منها في هدم رواسب الفكر الذكوري المتسلط في المجتمع. ويهدف البحث إلى دراسة رواية قلب الإسباني" لجميلة طلباوي" التي تداخلت فيها مجموعة من الأنساق الثقافية المعبرة عن الواقع الاجتماعي الجزائري، كما يهدف إلى تفحص القضايا الاجتماعية في الرواية التي تعكس آراء الأنثى الكاتبة وانطباعاتها عن الواقع.

الكلمات المفتاحية: كتابة الأنثى؛ الواقع الاجتماعي؛ قلب الإسباني؛ جميلة طلباوي.

Abstract

Feminine narrative writing provides a fertile space for addressing women's perspectives on social realities, such as customs, traditions, relationships between men and women, migration, and challenges to patriarchal authority. It is an attempt by women to assert their identity and active presence in society, while challenging the entrenched male-centric ideology in human communities. This research focuses on the novel «Spanish heart» by Djamila Talbaoui, which intertwines various cultural contexts expressing Algerian social realities. The study sheds light on the social issues addressed in the novel, it reflects the opinions of the female writer and her impressions of reality.

Keywords: Feminine writing; social reality; Spanish heart; Djamila Talbaoui.

* المؤلف المراسل

مقدّمة

تمثّل الرواية فنّا تعبيريًّا يتسع لقضايا المجتمع المختلفة المعقدة، وكانت هذه الكتابة بأقلام الذكور في الغالب، وسمح تطور المجتمع -وما أتاحه من حرية للمرأة- بظهور روايات بأقلام نسائية، وتقدم الرواية الأنثوية في تفاصيلها وأحداثها تجارب الشخصيات وتداخلها مع الواقع الاجتماعي والثقافي، وتسلط الضوء على قضايا جوهرية كالهجرة والعادات والتقاليد وتأثيرها في المجتمع، فهي تحاول من خلال هذه القضايا أن تبرز الصراعات الداخلية التي تواجهها المرأة من خلال تفاعلها مع الآخر الذكر تكاملا ومواجهة.

وتنتمي الروائية "جميلة طلباوي" بروايتها الموسومة "قلب الإسباني" إلى فضاء السردية النسوية، التي تلقي فيها الأضواء على أهم القضايا التي تشغل المجتمع الجزائري بعامة، والمرأة الجزائرية بخاصة بمعاناتها اليومية في سبيل تحقيق هويتها.

حاول البحث عرض هذه القضايا التي تضمنتها الرواية عبر جنبات سواعدها وشخصياتها وفق منظور سوسيو ثقافي، وهي قراءة نقدية تنهل من الدراسات السويولوجية للرواية، كذلك الدراسات الثقافية لأجل أن تكون دراسة تزاوج بين كل ما له بعد واقعي من جهة وبعد فكري ثقافي من جهة أخرى، حتى يصل البحث إلى الإجابة عن جملة من التساؤلات، يمكن إدراجها في الآتي:

- كيف تتصل كتابة الأنثى بالواقع الاجتماعي وقضاياه؟
- وماهي علاقة الكتابة الروائية بهوية الأنثى؟
- ما مدى تحقيق كتابة أنثوية مناهضة للسائد الاجتماعي في رواية قلب الإسباني؟

وفيما يلي إجابة عن هذه الأسئلة.

أولا: هوية الأنثى وجنس الرواية

شكلت الهوية الأنثوية محورا أسّاسيا في السرد الروائي النسائي، إذ سعت المرأة إلى البحث عن هويّتها من خلال المنجز السردي، وقد تدرجت المرأة من طور الرواية الشفوية إلى مرحلة الكتابة، التي بها رسمت شخصيات وأماكن، وذكرت أزمنة؛ بها كلها جسدت الهوية الأنثوية الفاعلة في المجتمع المتخيل الرواية. فالأنثى وهي "تكتب عن مواضيعها الخاصة تدرك تماما أن الهوية الحقيقية للمرأة تتحقق من خلال وعيها بالكتابة ووعيها بالأنوثة التي تسترد هويتها جسدا وفكرا، إن اكتساب هوية ثقافية بدأ حين قررت المرأة بعد نضال طويلة امتلاك ضمير"أنا" الذي من خلاله تمكنت من الإفصاح عن ذاتها ولم تعد بحاجة للرجل حتى يعبر عنها" (لعواس، 2020: 91). فاستغناء المرأة عن الرجل ليعبّر عنها مثّل انفصالا بينهما، ممّا اقتضاها أن تعبّر عن ذاتها بذاتها؛ فالذات النسائية "كموضوع سردي ثقافي يجمع شملهن ويوحد رؤيتهن. وذلك بالكشف عن الأدوار الاستراتيجية لفاعلية الأنثى داخل الحياة والمجتمع والسياسة والفكر والفن بحثا عن هوية ثقافية وتداولية للمرأة، أي أن تتعدى حدود القول إلى مساحات الفعل للسمو بالنوع الأنثوي" (بكاي، 2019، : 32). فهذا السمو يليق بها باعتبارها كيانا فاعلا في الحياة.

منحَ وعي المرأة بهويتها إمكانية حمل القلم والتعبير به عن فكرها كتابةً، ورفض كل ما يمنع تقدمها نحو اكتشاف هذه الهوية، والبحث المستمر عما يميزها كونها كاتبة، فمعرفة "الهوية الأنثوية وتحديد طبيعتها وشروط تكوينها كان الأصل الذي منح النسوية موضوعا خصبا ومشروعا للبحث. وقد أنتج كل ذلك كتابة أنثوية تنهل سماتها من تلك الهوية" (إبراهيم، 2011: 101). وتجسدت تلك الهوية في نسق لغوي يختص بالأنثى ويعبر عنها "فلابد أن تختص الأنثى بلغة بديلة تقوم بتمثيل تجاربها. فلا خيار للمرأة إلا بترسيخ مفهوم أنثوي للكتابة يتخطى الحبسة التي فرضتها عليها الثقافة الأبوية" (إبراهيم، 2011: 103). هذه الثقافة الأبوية التي غرستها الأعراف الاجتماعية منذ القديم، لذا، سعت المرأة إلى خلخلة هذا النظام لإثبات وجودها، فلا "يقصد بالهوية الأنثوية الاقتصار على ذات المرأة فقط، إنما زحزحة الهيمنة الذكورية المتغلغلة في الثنائيات المتضادة السائدة: الرجل/المرأة، العقل/ العاطفة، القوة/ الضعف" (إبراهيم، 2011: 101). فوعيها بذاتها ومكانتها الفعلية جعلها تثبت هويتها من خلال تجاوزها للهيمنة الذكورية القامعة لهذه الأنثوية والكابحة لها، فتخلصها من هويتها النمطية التي غرستها فيها الأعراف والمعتقدات واكتسابها لهوية جديدة مثلت وجودها وكيانها، عبّرت عما يجسدها في هذا الواقع المحتل من قبل السلطة الأبوية. فالأنثى تجد متعة في السرد للفت الانتباه إلى وضعها الاعتباري داخل المجتمع الذكوري، وإدانة التصورات التقليدية التي تجردها من أنوثتها وتنتقص من مؤهلاتها الفكرية والإبداعية، وإعادة النظر في التراتبية الجنسية ذات الجرح الأنثوي" (صالحة، 2018: 108). فإلغاء الأنثى، إذن، جعلها تدرك أن وضعها المجتمعي الفعلي يكمن في إسهامها في الحياة، فهو ليس حكرًا على الرجل يتحكم فيه.

سعت الروائية الجزائرية "جميلة طلباوي" لإثبات هويتها الأنثوية من خلال شخوص روايتها وتفاعلها مع الوقائع وتعاطفها معها، بحيث عبّرت في روايتها "قلب الإسباني" عن هوية أنثى فاعلة في المجتمع؛ من خلال معالجة قضايا محورية مست المرأة والرجل وعلاقتهما المتأرجحة بين التكامل والصراع، والتجاوز في بعض الأحيان.

1.تمثلات الهوية الأنثوية في رواية "قلب الإسباني"

1.1. المرأة والتهميش الاجتماعي

مثّلت هذه الرواية معاناة المرأة من التهميش والتحقير من طرف المجتمع والأسرة، وكانت شخصية "أم العيد" أكثر الأمثلة التي عانت من التهميش الأسري والتحقير، وبخاصة أن اللّه لم يرزقها ذكورا إلا بعد مدة زمنية طويلة، فعانت الويل من أم زوجها ومن المجتمع، كانت في كل حمل "تنتظر أن يكون المولود ذكرا وإلا قامت الجدة "أما سيتي" بتزويج ابنها لعله يرزق الذكر من امرأة أخرى. المرأة دون أولاد في عرفهم خيمة بلا أوتاد، فمن يمسك بها كي لا تتهاوى فتسقط، "الخيمة يشدوها أوتادها والمرا يشدوها أولادها" (طلباوي، 2008: 75). فلم تتمكن من رفع رأسها إلا بعد إنجابها الذكرين "أيوب" و"عبد النور"، اللذين مثّلا لها السند القوي الذي واجهت به الاضطهاد الأسري.

عانت "العائشة" ابنة "أم العيد" بسبب عدم إنجابها الذكور، فعلى الرغم من زواجها من رجل متعلم إلا أن هوسه بإنجاب الذكر جعله كغيره من الرجال؛ تقول "زوجها متعلم ويعمل معه كممرض في نفس المستشفى، ويعرف جيدا أن الرجل هو المسؤول عن جنس المولود إلا أنه هجر العائشة بعد أن أنجبت الفتاة الخامسة" (طلباوي، 2008: 75). لم يكن حتى التعليم منفذا من فكرة تمجيد الذكر وتفضيله على الأنثى.

وقد عانت زكية من اضطهاد أسري بسبب السلطة الذكورية، فقد تزوجت من محمد الذي قبل بها وبقي معها من أجل والدته، وأثبت أن ما يجمعهما مصلحة اجتماعية فقط، فبمجرد وفاة والدته بأشهر طلقها وتزوج من الفتاة التي كان يحبها.

2.1. المرأة المناضلة ضد الاستعمار الفرنسي

وقفت المرأة الجزائرية إلى جانب الرجل في حرب التحرير، وكان يحسب لها ألف حساب وهذا ما جسدته شخصية الجدة "أمّا سيتي" اللبؤة، التي «كان الرجال يحسبون لها ألف حساب، وكان زوجها السي العربي يحترمها ويجلها، أنجبت منه المهدي واستشهد، عزاؤها بعده هو استقلال الجزائر وأنّ ابنها الوحيد سينجب لها سلالة من الرجال يشبهون جدهم الشهيد رحمه اللّه" (طلباوي، 2008: 22). مكانة الجدة أكسبتها قوة في المجتمع النضالي أيام الثورة التحريرية، وهيبة بعد الاستقلال، ففعل المرأة النضالي منحها مكانة خاصة في مقابل اعتبارها اجتماعيا إنسانا ضعيفا، فكفاحها وقوة إرادتها في مواجهة المحتل جسّد حبها للوطن واستعدادها فكريا وجسديا للتضحية من أجله إلى جانب الرجل. وهو ما أكسب المرأة الجزائرية صورة مختلفة عما جسدته الشخوص السابقة، فشخصية المناضلة أعطت المرأة هويتها الفاعلة والمستقلة.

3.1. المرأة الفاعلة اجتماعيا

شخصية "طامو" أعطت مثالاً لحب التعاون ومساعدة الغير "تلك الشابة ورثت خدمة الزاوية عن والدتها مثل إخوانها وقريبا من قبلها، يجدن متعة في إعداد الطعام لضيوف الزاوية وفي تنظيفها وغسل أفرشتها" (طلباوي، 2008: 13) . هذه الخدمة المتوارثة في العائلة من شأنها أن تعطى للزاوية بعدا آخر، وتغرس هذه القيم في الأجيال خاصة أن الزاوية لها دور في خدمة الدين والقرآن الكريم.

كما نجد صورة المرأة التي أفنت عمرها في علاج النساء، فكانت تصنع لهن وصفات لعدة أمراض؛ على الرغم من أنها "لم تتعلم ولم تتخرج من الجامعة لكنها تقوم بتطبيب النساء وبتوليدهن، فعلى يدها ولدت أجيال من سكان الحي" (طلباوي، 2008: 19) ، وهذه الصورة تثبت مدى فاعلية المرأة في المجتمع فدورها في المجتمع لا ينحصر فقط في واجباتها المنزلية ودورها الأسري بكونها زوجة ومربية، بل يتعداه إلى إفادة المجتمع من قدراتها في مجالات عدة.

4.1. المرأة المتمردة على العادات والتقاليد

تمثلها شخصية "وهيبة" الفتاة الجميلة المتخرجة في الجامعة، التي رسمت لذاتها طموحا جعلها تحلق في الأفق البعيد، فقد كانت ناقمة على الأوضاع التي تعيشها في مجتمعها، وبخاصة

نظرة المجتمع إلى جسدها وتجاهل وعيها وثقافتها، فقررت الهروب من هذا الوضع إلى فضاء افتراضي من خلال الشاشة الزرقاء ومواقع التواصل الاجتماعي، وتحررت من قيود مجتمعها بخوضها في علاقات افتراضية مع الرجال، ولكنها سرعان ما تجاوزت هذا الفضاء إلى فضاء الواقع الحقيقي، وأنشأت علاقة مع رجل أعمال سعودي، وقررت الهروب من المنزل والذهاب معه، وهذا السلوك والفعل الذي أقدمت عليه وهيبة كان ردة فعل من نوع خاص ضد القيود التي فرضتها عادات وتقاليد مجتمعها، فقد أرادت بهذا الهروب التعبير عن وجهة نظر فتاة طموحة ورغبتها في الحصول على حياة أفضل من واقعها، وموقفها يختلف حتما عن وجهات نظر نظيراتها من نساء تلك المجتمعات، فردود أفعالهن تختلف باختلاف مستوياتهن التعليمية وظروفهن الأسرية.

5.1. المرأة في الضفة الأخرى وتحول المبدإ

تمثلها الطبيبة "صوفيا" التي تعرف عليها "عبد النور" الصيدلاني، فقد جمعهما مجال عملهما، إضافة إلى تكوين صداقات ولقاءات. كانت امرأة جميلة وقوية احتوت "عبد النور"، إذ مثّلت له الوطن والأهل والأمان، وبخاصة أنها أعادت له الحياة بزرع قلب له بعد أن تدهورت حالته الصحية، لكنها تخلت عنه حينما اكتشفت أنه منظم لمجموعة إرهابية وأبلغت السلطات. لقد اختارت أمنها واستقرار حياتها في مقابل عواطفها، تقول الكاتبة: "تخلت عنه منذ ظهرت صورة صديقه علال في الجرائد على أنه متورط في العملية الإرهابية الأخيرة. ترجاها أن تسمعه، أن تعطيه فرصة ليشرح لها ما حدث" (طلباوي، 2008: 84) . كان عليها أن تبتر هذه العلاقة التي تهدد حياتها واستقرارها بالرغم من متانة هذه العلاقة العاطفية، إنها تمثل المرأة التي ترجح عقلها على عاطفتها، وهي صورة تحطم الصورة النمطية التي تضع المرأة في خانة العاطفة وتبعدها عن خانة العقل.

2-علاقة المرأة بالآخر(الذكر)

1.2. علاقة احتواء وتكامل

جمعت "عبد النور" و"صوفيا" صداقة سرعان ما تحولت إلى حب "كان محظوظا بتعّرفه على صوفيا التي أعجبت به وأحاطته برعايتها من أول يوم التقيا فيه صدفة في أحد مطاعم مدريد" (طلباوي، 2008: 47). وتعلقت به، كان كل منهما مكملًا للآخر، وبخاصة أنّ "صوفيا" تعرضت لقصة حب فاشلة، فوجدت في "عبد النور" الملجأ والمأوى، وكذلك "عبد النور" جعل منها الوطن والعوض عن الأهل "كيف أنّ هاتف صوفيا أعاد الأندلس لروابي روحه فأعاده إلى الحياة، صوفيا خاطرة أفرجت ماء الحياة من بئر ما أغدقت به على جسد عبد النور فتحّرك الجسد الذي ظنّ أيوب أنه جفّ ومات" (طلباوي، 2008: 198). لم تكن هذه العلاقة بين شخصين فقط؛ بل كانت علاقة بين حضارتين.

كذلك كانت علاقة "أم العيد" وزوجها، فلم تكن "أم العيد" في صراع مع زوجها، بل على العكس من ذلك؛ كان يكن لها كل الاحترام والتقدير، عدا ما عاناه الاثنان من بعض الضغوطات، التي كانت تمارسها والدته بسبب عدم إنجاب الذكور، لكنه لم يتخل عن زوجته وصبر حتى رزقه اللّه بذكرين، فإنجاب الذكر كان إنجازًا عظيمًا من خلاله تكتسب الأسرة بعامة والمرأة بخاصة مكانة في المجتمع.

2.2. علاقة ضياع وحرمان

- علال وحبيبته محجوبة: رغم أن "علال" كان شخصا سكيرا إلا أنه يملك قلبا حنونا وطيبا، فقد تعلق قلبه بفتاة جميلة، وكانت تبادله المشاعر نفسها، إلا أن القدر فرق بينهما، وتزوجت من رجل آخر. إذ كانت عزاءه الوحيد، وبفقدانه لها قرر مغادرة الوطن والبحث عن السكينة والأمان في وطن آخر"لو فاز علال بمحجوبة لوجد فيها العزاء لخيباته، لكن زواجها زاده يتما وغربة وبتر علاقته بالمكان ... ومن يومها قرر علال الهجرة وبدأ في التخطيط لذلك كثيرا ما ردد عبارته التي أصبح معروفا بها: "كرهت كل شيء" (طلباوي، 2008: 139). لم يعد هناك ما يربط "علال" بالوطن فكل الأحباب غادروا وكان عليه الهروب من واقعه.

- حورية وعبد النور: "حورية" تلك الفتاة الحوراء الفاتنة قررت دخول معهد تكوين المعلمين وعدم إكمال الدراسة، وإضافة لعملها في التعليم أتقنت كل أمور المنزل وتعلقت بـ "عبد النور" وكانت "أم العيد" قد فاتحتها بالموضوع، وأنها ترغب أن تكون كنةً لها، لكن "عبد النور" تزوّج في إسبانيا من "صوفيا" فأصيبت بخيبة أمل.

3.2. تضحية الأنثى

جسدت "جميلة طلباوي" هذه التضحية في علاقة "مريامة" و"أيوب"، على الرغم من أنّ زواجهما كان تقليديًا إلا أنهما كانا مخلصين في علاقتهما، فلم يعد بإمكان زوجته إنجاب الأولاد بعد إنجابها لابنها الأول، لكنه لم يتخل عنها، وكانت زوجته تسايره في كل ما يقول خاصة أن "أيوب" أفنى حياته في الشغل والاهتمام بأمور عائلته بعد وفاة أبيه، كان يهتم لأمور أخيه المغترب وأخواته مقابل ذلك خلق فجوة كبيرة بينه وبين ابنه لم يدرك ذلك إلا بعد أن كبر ابنه.

4.2. الشخصية الذكورية وقضايا النسوية

لم يقتصر حديث "جميلة طلباوي" عن المرأة وقضاياها فحسب، بل جسدت هويتها من خلال شخصيات جنس الذكر، بحيث مثّل الذكور الركيزة الأساسية في بناء أحداث الرواية. وكانت شخصية "أيوب" أبرزها، هذا الفتى الذي تربى على تعاليم القرآن الكريم وعادات حفرت في عقله وقلبه، فقد كان حاملا لشعار "اللّه يجعل خويا سلطان وأنا وزيره"، هذا الشعار الذي طالما رددته والدته "أم العيد"، والذي أسهم بشكل كبير في بناء علاقة أخوية قوية بينه وبين أخيه "عبد النور" وكذلك أخواته البنات. هذه العلاقة التي عبرت بها الكاتبة عن تفاني وإخلاص "أيوب" لإخوته، والذي كان في الكثير من الأحيان على حسابه. كما أنه استاء من تصرف زوج أخته المتعلم الذي تخلى عنها بسبب إنجابها لأنثى، خاصة وأنه على علم بما مرت به أمه من تحقير لتأخر إنجابها الذكر الذي يحمي العائلة ويرفع الرأس، ولم يترك حورية لوحدتها بعد أن تخلى عنها أخوه "عبد النور"، وبخاصة في مرض أمها، وهروب أختها "وهيبة".

ومن الشخصيات الحاملة لقضايا المرأة في النص "عبد النور" الفتى المتمرد منذ نعومة أظفاره، الذي حمل بين أضلعه قلبا إسبانيا في جسد عربي، وهو ما مثّل انصهار الحضارة العربية والإسبانية وما تحمله في طياتها من أسرار. كما اختارت "جميلة طلباوي" لـ "أبّا هدي" هدي شخصية

الأب المحب لأسرته "الجميع يتفق أن "أبا هدي" كرس حياته لأبنائه، فلقد كان أبا صالحا" (طلباوي، 2008: 45). رغم رغبته الشديدة في إنجاب الذكر إلا أنه لم يكن يكره بناته ولم يعتبرهن عارا على العائلة. كما تحدثت عن الطبيب الإسباني الذي استقر في الجزائر مثل معجزة للحي بعدما تأكدوا أن لا فائدة من تمائم الطالب "سي أحمد" الذي كان مقصد العجائز والنساء من أجل الاستشفاء، إذ كان يكتب لهن تمائم يعتقدن أنها كفيلة بشفائهن وحل مشاكلهن.

تجسّدت علاقة الشخصية الذكورية بالقضايا النسوية من خلال العلاقة الديناميكية مع الأنثى؛ بين تكامل وحرمان، وتحدٍ وتجاوز.

ثانيا: موقف الأنثى من العادات والتقاليد والقضايا الاجتماعية

شكّلت الكتابة الإبداعية لدى "جميلة طلباوي" فضاءً للتعبير عن الواقع الاجتماعي المثقل بقضايا عدة لا تخص الأنثى فسحب بل تخص حتى الرجل؛ وذلك عبر إيرادها أحداثًا مست المجتمع الجزائري بخاصة، والإنساني بعامة، فمجتمعها مكلل بقضايا عبّرت من خلالها عن عمق ما يعيشه الشعب الجزائري، كما عبرت عن عادات وتقاليد عمق الصحراء، فمجتمعها مثل غيره من المدن الجزائرية لم يخل من عادات تميزه وتعبر عن ثقافته، ولم يقتصر حديثها عن الأنا الجزائرية، إذ سلطت الضوء على الآخر الإسباني وعلاقته بهذه الأنا، معبرة عن مكانتها باعتبارها أنثى ووجودها في هذا المجتمع "فجاءت صورة المرأة الجديدة مختلفة عن الصورة النمطية القديمة الضعيفة، متميزة بوجودها كامرأة وإنسانة تربطها علاقة وثيقة بالوطن، اجتماعيا، سياسيا؛ لأن نضالها على المستوى الشخصي لا يمكن أن يتحقق إلا بالنضال لتحرير المجتمع من مختلف أشكال الظلم والعبودية. وبث الوعي في أبناء شعبها واستنهاضه لمقاومة الاستبداد". (فاتح، 2021: 86). أي لم تعد الأنثى تقف وتشاهد ما يحدث، بل أصبحت جزءًا مما يحدث، ولها من القوة ما يجعلها تعبّر عن رأيها في مختلف القضايا المستجدة في مجتمعها.

ففي رواية "قلب الإسباني" تعرض مجموعة من العادات والتقاليد، إضافة إلى بعض القضايا الاجتماعية التي ميزت سكان ولاية بشار، وقد اختارت الرواية (الراوي والشخصيات) عائلة فقيرة عانت الأمرّين من الفقر والمرض، ورغم ذلك كان سبيلها إلى السعادة هو الحب والتضامن والأخوة.

1-مكانة المرأة في مجتمع الرواية

شغلت المرأة حيزا مهما في رواية "جميلة طلباوي"، إذ لفتت الانتباه إلى مسألة هامة تتعلق بالمجتمع الجزائري بخاصة -وربما تشمل المجتمع العربي- وهي إنجاب الإناث، فقد شغلت هذه القضية عائلة "أبا هدي" فـ"أم العيد" تدرك تماما أن خلاصها من حديث المجتمع وقهره سيكون بإنجاب ذكر يحمل اسم العائلة "فقد ولد ذكرين وسط ثلاث بنات مسعودة ومبروكة والعايشة، والدتهم خالتي أم العيد أدركت قيمة أن تلد ذكرا بعدما كانت لا تنجب إلا البنات، وبعد طول انتظار، لذ كانت فرحتها غامرة وهي تضع الذكر الذي سجل انتصارها على القهر والظلم" (طلباوي، 2008: 17). من قبل أم زوجها التي توعدتها بتزويج ابنها بزوجة ثانية تنجب الذكر الذي سيحافظ على النسل. فقوة المرأة كانت بإنجابها ذكرًا، وغير ذلك سيجعلها تقبع في مرتبة دونية، ما يحرمها من

أبسط حقوقها، هذه "الوضعية المأساوية التي تعيشها كثير من الأمهات تجعل المرأة ترجو أن يكون الذي في بطنها ذكرا وليست أنثى، وبذلك تحقق كثيرا من الامتيازات، منها الحظوة الزوجية، والمكانة المرموقة والمستقبل المضمون في بيت الزوجية، والاستعداد للمستقبل بهذا المولود الذي سيكون رجلا يؤمن حياة الأم بعد أن تعرضت للهوان" (مفقودة، 2008: 39). نجد الجدة "أم ستي" تحرمها لذة الوحم إن كان من في رحمها أنثى، فقدوم الذكر "أيوب" كسر جبروت الجدة: "قدوم أيوب أنساها أوجاعها وكلام الجدة "أما ستي" الجارح بأنها عاجزة عن إنجاب الذكر، أنساها قسوة هذه وهي تحرمها من الاستمتاع بلذة الوحم... وحرضت ابنها ألا ينجرف وراء رغباتها فيحضر لها كل ما اشتهت فلن تمنحه في النهاية سوى أنثى" (طلباوي، 2008: 17). كان "أبا هدي" يحب بناته ولكن تطلعه لإنجاب الذكر جعله يقلل جلوسه للرجال إلا بعد إنجابه "أيوب وعبد النور" أبا هدي، هو الآخر صارت جلسته مع رجال الحي نكهة أخرى، تخلص من عقدة النقص فقد صار والدا لذكرين سيصيران رجلين يعتمد عليهما في الحياة" (طلباوي، 2008: 25). فمكانة الأنثى دائما تأتي بعد الرجل، واسم العائلة يحمله الرجل، ومواجهة الحياة لا تكلف بها المرأة، فكل ما عليها إنجاب الذكر الذي يمنحها وقارها ووزنها في المجتمع على حد قول "أما سيتي": "لي ما عندها الرجال تكوي صدرها بالأحجار" (طلباوي، 2008: 35). فالذكر في المجتمع مفتاح السعادة، وبإنجابه تعيش المرأة مرفوعة الرأس، كيف لا؟ وقد أنجبت من يكون لها سندا ودرعا.

في حين جسدت الجدة "أما سيتي" رمز المرأة المناضلة التي حملت السلاح في وجه العدو الغاشم "تلك المرأة السمراء الطويلة الممتلئة ضخمة الجسم، كانت لها هيبة خاصة في الحي الشعبي الدبدابة، هذه المجاهدة التي حملت السلاح وحاربت ضد الاستعمار الفرنسي إلى جانب الرجال الذين كانوا ينادونها باسمها الثوري المستعار (السي قدور)" (طلباوي، 2008: 21-22). أكسبها كفاحها ضد الاستعمار الغاشم وقارا وسط الأهل وسكان المنطقة. هذه المرأة التي لم تخش المستعمر قررت أن تتحدى وجوده بالنضال إلى جانب الرجل. لقد مثلت صورة المرأة الغيورة على وطنها، المساندة للرجل والمتحدية لكل الصعاب.

ولم يقتصر نضال المرأة الجزائرية على خوض الحرب ضد المستعمر الفرنسي، فهناك عدة صور لنضالها؛ منها صمود "أم العيد" أمام قهر الأسرة والمجتمع، ونجد أيضا مواجهة "حورية" للظروف الأسرية التي مرت بها، وزواج أخت علال من رجل لا يكن لها أية مشاعر، مما جعلها تناضل من أجل الحفاظ على أسرتها واستقرار حياة ابنها... إلى غير ذلك من صور نضال المرأة.

ومنحت "جميلة طلباوي" لشخصية "صوفيا" الإسبانية دور المرأة المتعلمة المتحررة، تلك الطبيبة قوية الشخصية التي أعادت الحياة لـ"عبد النور" بعملية زرع القلب الإسباني له، ومنحه كل الرعاية والحب، مما جعل "عبد النور" ينصهر في ثقافتها ويتعلق بها تعلق الجسد بالروح، وهو ما جعله يشعر بالضياع حين اتهمته بالإرهاب وأبلغت عنه، فقد شكل ذلك صدمة له واشتد مرضه، وبمجرد الخروج من السجن قرر العودة إلى حضن الأهل والأم التي فارقت الحياة حزنا على فلذة كبدها وفرحتها في هذه الدنيا، فوعي "عبد النور" بذاته جاء بعد تخلي الطرف الآخر (صوفيا) عنه.

2.موقف الأنثى من أسباب ودعائم إثبات الذات (الأنا)

1.2. موقفها من القرآن الكريم

لم تغفل "جميلة طلباوي" الحديث عن الإسلام والقرآن الذي يعد أحد ركائز الفرد والمجتمع الجزائري، فقد "أصبحت الجدة أما ستي تتصدر المجالس النسوية باعتزاز وهي تتحدث عن حفيديها وكيف أنهما يحفظان القرآن في الكتّاب" فحفظ القرآن يكسب صاحبه وقارا ومكانه في المجتمع، فقد عمدت هذه الأسرة كغيرها من الأسر الجزائرية إلى تربية أولادها على حفظ القرآن حيث نلمس ذلك في إشارتها أن أبا هادي" الذي سعى إلى تعليم أبنائه القرآن الكريم،" فكانت الأسر تحتفل بحفظ أبنائها للقرآن "فيصنعون فرحة أهاليهم وبهجة الزقاق، وينالون من هبات سكان الحي، يقدمونها لمعلمهم (الطالب) مكافأة أن سهر على تحفيظهم كتاب اللّه، وبالمقابل يزن لهم الطالب لوحاتهم التي كتبوا عليها سور القرآن الكريم" (طلباوي، 2008: 44). لقد سلطت الكاتبة الضوء على حرص الأهل تحفيظ القران للأولاد منذ الصغر وهو ما يفتح قريحتهم على تعاليم الدين الإسلامي، وكيف كان للمرأة الدور الفاعل في ذلك.

2.2. موقفها من الموروث الثقافي

اختارت الروائية بيئة صحراوية تمثل موروثها الثقافي، كما أنها من المظاهر المجتمعية المعبرة عن المنطقة، وأول ما نبدأ الحديث عنه في ذلك لجوء الجدة إلى داية الحي أما عقيدة الحي وتتوسل إليها "أن تعطيها وصفة تحقق لها الأمنية فتحبل كنتها بالذكر" (طلباوي، 2008: 19) . لم تقتصر محاولات الجدة على الداية، إذ لجأت إلى الطالب الذي كان في اعتقادهم السبب الأول في الشفاء من كل سقم و بيده حل لكل مشكلة : "عادت أما ستي من زيارتها للطالب السي أحمد ذات مساء وهي تحمل تميمة وتأمرها بأن تعلقها لعلها تنجب الذكر، فقد كلفتها تلك التميمة عكة" كاملة أهدتها للطالب السي أحمد، "لم تعترض خالتي أم العيد على التميمة أمسكتها بيدها وخبأتها في صدرها وظلت ملتزمة صمت الصابر المحتسب" (طلباوي، 2008: 21) ، لم يكن للأم خيار سوى تقبل ما حل بها؛ لأن خلاصها من كل هذا العذاب يكمن في إنجاب ذكر.

بعد إنجاب ولي العهد، تظهر عليه علامات المرض، إذ كان ذا بنية ضعيفة، فقررت العائلة التوجه به إلى "طامو": " خادمة الزاوية لترضعه لعل في حليبها البركة" (طلباوي، 2008: 11). اعتقد المجتمع بأن حليب المرأة السوداء فيه من الشفاء والبركة ما يجعل "أيوب يتعافى" مما أصابه، فتقوى بنيته، وهو ما أكدته العجوز "فاطمة": "بأن في حليب المرأة السوداء أسرار كثيرة" (طلباوي، 2008: 12). لجوء المجتمع الجزائري لمثل هذه المعتقدات يدل على قلة الوعي الحضاري لهذا المجتمع الروائي الذي يمت بصلة لواقع المجتمع الجزائري في فترة المحتل الفرنسي، الذي عمل على إغراق المجتمع في غياهب الجهل، ولعل الروائية جعلت من المرأة الأساس الذي ثبتت به تلك المعتقدات كونها عماد الأسرة ووعيها العميق.

أكدت الجدة أن سبب مرض كل من "أيوب" و"عبد النور" العين الحاسدة التي أصابت العائلة، فهرعت إلى وضع البخور في زوايا المنزل لعلها تتخلص من هذه اللعنة التي حلت بهم، كما لجأت إلى الطالب "سي أحمد"، الذي كان "مقصدهن كلما تألمت إحداهن أو تأخر حملها أو مرض أحد أطفالها أو

أحد أفراد عائلتها، تحمل النسوة الهدايا للطالب السي أحمد يقبلن رأسه ويده، ويحكين له همومهن ويشتكين له آلامهن " (طلباوي، 2008: 33) . فلم يبخل على الصغيرين بتميمتين علقت على صدر كل واحد منهما، وبعد فشل فعل التمائم وُضع "عبد النور" داخل سلة ورُددت عليه تمائم من أصوات تقول: "حيشي حيشي ما بغي لميشي، أطلق سراحه يا ربي" (طلباوي، 2008: 29) والسير به في الزقاق لملء السلة بالدقيق والسكر "لعل في العطية الثقيلة بركة " (طلباوي، 2008: 29). بعد تلك المحاولات توجهت العائلة بصغيرها إلى الطبيب الإسباني المقيم في مدينة بشار فما "كانت لعنة بركة حمو قيو سوى مرض التهاب سحايا الدماغ. لتدرك أما ستي أن الطبيب السبنيولي قد أثبت تفوقه على تمائم الطالب السي أحمد" (طلباوي، 2008: 34). كل من التمائم والخرافات لم تكن إلا موروثا شعبيا تناقلته الأجيال، لكن مع التطور العلمي واتساع المعارف كان على الفرد الانفتاح على التطور الإنساني العلمي والطبي، وقد سبق وعي المرأة بذلك في الرواية وعي الرجل، واتضح ذلك في موضع آخر من الرواية، حينما بدأت النسوة يقصدن أيوب الممرض، فمهنته "كممرض غيرت حياة النسوة العجائز في الحي لم تعد وجهتهن حين يمرضن "الطالب السي أحمد"، ولم تعد التمائم المعلقة على صدورهن تكفي، بل أصبحن يقصدن أيوب ليقيس لهن ضغط الدم ونسبة السكري في الدم، يستقبلهن في مصلحة العلاج ويرشدهن إلى الطبيب (طلباوي، 2008: 73) ". هذه الطقوس وإن كانت منافية لتعاليم الدين الإسلامي إلا أنها رسمت القدرات الفكرية للفرد الجزائري في ابتداع خرافات تفتح له مغاليق الجهل بأسباب المرض وعلاجه، وكذلك أسباب الرزق والزواج والإنجاب... وغير ذلك من مظاهر العيش الإنساني في المجتمعات، والتي تدخل المرأة دعامة أساسية في محاولة إنشاء فهم خاطئ، ومن ثم الوعي بضرورة تغيير هذه المظاهرة وفق توجهات هذا الفكر الثقافي الواعي.

3. قضية الأنا والآخر بين التأثر والتأثير

تنوعت أشكال التأثير والتأثر بالآخر، سواء أكان هذا الآخر مختلفا عن الأنا من حيث الانتماء الفكري والديني والعرقي، أم من حيث العادات والتقاليد الاجتماعية والقيم الأخلاقية، وإن كان هذا الآخر من بيئة الأنا ودينها فإننا قد نجد اختلافات من حيث جنس طرفي الثنائية، ومن حيث المبادئ الفكرية والإيديولوجيات والقيم الاجتماعية والأخلاقية، وهو ما نجده في رواية "قلب الإسباني" من أشكال مختلفة لعلاقة التأثر والتأثير، سواء أكانت إيجابية أم سلبية.

عبد النور صاحب الشعر الأشقر ذو العينين الخضراوين اللتين "كانتا سببا في مناداة الأقارب وسكان الحي له بلكنتهم المحلية " السبنيولي" بمعنى الإسباني لعلها كانت نبوءتهم الأولى له بأن يختار إسبانيا ملاذا له" (طلباوي، 2008: 22) كان لهذا اللقب أثر عميق في نفس "عبد النور" الذي اختار الهجرة إلى إسبانيا والتعلق بالآخر والانصهار في حضارته، فـ"عبد النور" رمز التمرد على العائلة والوطن حتى على المرض، كان "عنيدا منذ صغره تمرد على الدخول إلى الكتاب...كما تمرد أيضا على الأسرة وعلى الأرض الأم واختار الهجرة إلى إسبانيا" (طلباوي، 2008: 46). هذه الشخصية المتمردة التي سعت إلى إيجاد هويتها وإثبات وجودها من خلال الخروج عن الموروث الثقافي والذوبان في حضارة الآخر بلاد "سرفنتايس". بدأ تعلق "عبد النور" بإسبانيا في أرض الوطن، ثم بوصوله إلى ما وراء البحر وتحقق حلمه وتعرفه على "صوفيا"، وبدأت العلاقة بينهما ببذور صداقة

لتتحول إلى ارتباط وثيق بالزواج وأصبح كل منهما "جزيرة سلام كانت تفتقدها، فارتمت في حضنه ومن ليلتها صارت جزءا من حياتها" (طلباوي، 2008: 48).

زاد تعلق "عبد النور" بالآخر بشكل كبير "بعد أن أودعت في جسده قلبا إسبانيا" (طلباوي، 2008: 50) مع أول "نبضاته أعاد إليه انتكاسة الأندلس" (طلباوي، 2008: 50). تحوّل التأثر بالآخر الأوروبي طريقا للبحث عن جذور الحضارة الأندلسية إحدى رموز مجد الحضارة العربية الإسلامية ، هو تحول إلى البحث عن الهوية والانتماء، بل عن الانفتاح الحضاري الذي أصبح ضرورة تمثلها الإنسانية لوجود تلاقح حضاري صنع جذوره الأنا وليس الآخر، إنها حضارة لا تزال آثارها تقبع في الذاكرة، إذ عمدت "جميلة طلباوي" إلى إحياء تاريخ هذه الحضارة من خلال القلب الإسباني المزروع بين ضلوع عربية جزائرية: "يكرر التاريخ بشكل آخر والأندلس تغرس هاهنا في أوربا بدمائها العربية (طلباوي، 2008: 162) "استجابة جسد عبد النور وتقبله لقلب إسباني يبرز لنا مدى أهمية إذابة الحواجز بين الأعراق والحضارات من أجل تحقيق التوافق والانسجام "أكثر ما يدهش صوفيا هو تجاوب جسم عبد النور مع القلب الإسباني الذي زرع له...أما أكثر ما يذهل عبد النور هو ذلك الانصهار بينه وبين صوفيا كل الفوارق بينهما ذابت فوارق الدين والعرق". (طلباوي، 2008: 56) وهي إحدى صور انفتاح الأنا على الآخر.

في مقابل ذلك نجد صورة الأنا في مقابل الآخر ترسمها شخصية "علال"، وهي شخصية منبوذة لدى سكان حيه في "الدبدابة" تقول "جميلة طلباوي": "كان فزاعة الحي حتى أنهم سموه علال الطوروس، لأن غضبه كان كاسحا مثل ثور هائج، عرف أيضا بإدمانه على الكحول وسهراته مع الحشاشين" (طلباوي، 2008: 136) حيث ضاقت به سبل العيش ليقرر بعدها الهجرة إلى إسبانيا لعله يخرج من يأسه وظروف عيشه وحالته بعد مرض والده وزواج حبيبته. بعد سفره تورط مع مجموعة إرهابية في رحلة بحثه عن طرق سريعة للحصول على المال، تأثره بالحضارة الإسبانية جرفه نحو تيار أسوء مما كان عليه في الجزائر، لينتهي به الأمر إلى الموت وتوريط صديقه "عبد النور"، الذي رأى فيه الوطن والحنين والهوية والأهل، والذي كان عونا له في مواجهة ذاته التي انصهرت في أفكار دخيلة على هويته وانتمائه الفكري والديني، فحين علم بتورطه مع الجماعة المجهولة أخذ منه سلاحه حتى يخلصه من تلك العلاقة الضبابية والهشة التي تربطه بهم، ليجد نفسه متهما بالإرهاب دون أن يدري: "بدأوا بإطلاق إشاعة كفيلة بتشويه عبد النور الصيدلي مفادها بأنه يصنع متفجرات بدلا من الأدوية" (طلباوي، 2008: 179). فكان ذلك منعرجا حاسما في علاقته مع زوجته "صوفيا" وسببا في اعتقاله وتأزم حالته الصحية، وهو ما يمثل العواقب السلبية التي تضر الأنا ومن حولها جراء تفلّتها من مبادئها.

نجد في مقابل تأثر الأنا بالآخر الأجنبي، تأثرها بالآخر العربي عبر علاقات الانتماء إلى الحضارة العربية الإسلامية، وهو ما تجسده شخصية "المهدي ابن أيوب" الذي تعلق بمواقع التواصل الاجتماعي، ما أتاح له فرصة التعرف على "عبد زهرة" العراقي الذي أتى بدوره لزيارة بشار باحثا عن خاله مستغلا الفرصة من أجل اللقاء بالمهدي، فقد أدرك "أيوب" من هذه الزيارة تأثر وتعلق ابنه بهذا

الرجل عبر مظاهر اللباس وطريقة التفكير، فالمهدي كان يشبه عمه في لون العينين وغربته في وطنه وبحثه الدائم عن إيجاد هويته من خلال الآخر.

ومن صور علاقة الأنا الجزائري بالآخر العربي، ما جسدته شخصية "وهيبة" الفتاة الجميلة المثقفة وعلاقتها بشخصية "فهد" الرجل السعودي صاحب المال والجاه الذي مثل سحر المشرق العربي في سعة العيش ورغده، إنه يعيدها إلى متخّيل عربي يمثّله مصباح علاء الدين السحري، الذي يمثّل الخلاص والانفراج، وبخاصة بعد سعيها طيلة أربع سنوات من أجل الحصول على وظيفة دون جدوى، هذا الشخص الذي تعلقت به عبر حلمها جعلها تتمرد على الأعراف والتقاليد وتتحدى عائلتها بزواجها السري من هذا الثري، والهروب معه إلى دبي. ولكنها سرعان ما تعود وهي تجر خيبة الأمل بسبب تسرعها في الحكم على الآخر، وتعلّقها به دون احتكام للعقل، أو للعرف الاجتماعي والأسري، ومواجهة مصير مجهول دون إدراك عواقب هذه المواجهة التي انبنت على التسرع والانفلات، فقد عادت "حمامة جريحة مكتوبة بجمر تجربة محترقة بنار الندم، متمنية لو عادت إلى زقاق عمي سالم لتقبل ترابه وتبكي بين يدي حورية ووالدتها" (طلباوي، 2008: 156). لم ينفعها ندمها، وبخاصة أنها فقدت كيانها وروحها من هذه التجربة الفاشلة.

سعت الروائية لبسط بعض صور علاقة التأثر والتأثير بين الأنا الجزائرية والآخر، وقد لفتت أنظار قراء النص إلى خطورة الانبهار والانصهار عبر وهم البحث عن الذات والهوية، أو الانفتاح دون حدود أو ضوابط تضع الذات في إطار الاستقلالية والحفاظ على الهوية، وقد كانت الشخصية الأنثوية شخصية فاعلة في صور علاقة الأنا بالآخر.

4. قضية الهجرة

ركزت "جميلة طلباوي" في روايتها على موضوع الهجرة ومغادرة الوطن، إلى مكان أكثر أريحية في نظر أولئك الحاملين لشعار طالما ردده شباب اليوم: "هنا مكان والو"، هذه العبارة التي جعلت جيلا كاملا يرغب في الابتعاد عن" هنا "بحثا عن" هنالك" في الضفة الأخرى وراء البحر" (طلباوي، 2008: 43) كانت هذه حال عبد النور وعلال الذي "أراد بقرار الهجرة إلى إسبانيا الهروب من نحسه" (طلباوي، 2008: 44) والبحث عن حياة أفضل، لكثرة الهموم والمشاكل، أمثال "عبد النور" و"علال" وغيرهما ممن تخلوا عن الأهل والأحباب، وخاضوا غمار مواجهة البحر والولوج لعالم الآخر سعيا منهم للبحث عن الهوية المغتربة داخل أنفسهم. ونجد أيضا مثال آخر للغربة هي غربة الروح المتمثلة في ابن أيوب المهدي الذي شبهه أبوه أيوب وأصدقاؤه بعمه المهاجر و"كلما ناداه أصحابه وهو يعزف القيثار صحيت "يا السبنيولي"، كلما حركوا في أعماقه شوقا للالتحاق بعمه عبد النور في إسبانيا" (طلباوي، 2008: 72). حيث رأى أن أفضل حل للعيش بسلام مغادرة هذا الزقاق فالمهدي "أصبح يتطلع للحصول على المال والخروج من زقاق عمي سالم أصبح يحلم بالنجومية في عالم العزف والغناء" (طلباوي، 2008: 72). أي أنه اعتبر ما حوله لا يجسد طموحاته ولا يحقق أحلامه.

من خلال حديث الروائية عن موضوع الهجرة الذي أصبح ينخر المجتمع الجزائري، أوضحت بشكل صريح أن الإنسان لا يجد نفسه إلا في وطنه بين أحضان عائلته ومجتمعه، فـ"عبد النور" قرر الهجرة لكن حين تأزم وضعه وزج به في السجن، أول شيء بادر به بعد الإفراج عنه هو العودة

للوطن. كما لقي "علال" مصيره جراء انجرافه وراء بريق الحضارة الإسبانية، ربما كان بقاؤه وسط أهله يضمن له حياة أفضل، في حين خسرت "وهيبة" كيانها بعد أن زال البريق الذي جرفها لتعود إلى أرض الوطن تجر أذيال الخيبة.

رصدت "جميلة طلباوي" عدة قضايا اجتماعية منها الهجرة التي أصبحت آفة العصر، أوردت مجموعة من العادات وتقاليد مست المجتمع الصحراوي وتحديدا البشاري، هذه العادات التي عبرت عن الموروث الثقافي للمنطقة وتمسك المجتمع بهذه الثقافة، كما بينت أن تعاليم الدين الإسلامي جاءت لمحو الخرافات والمعتقدات الناخرة للعقول.

ثالثا: سلطة الأنا الأنثوية مقابل السلطة الأبوية

يعد النظام الأبوي محورا رئيسا في قمع المرأة وكبت حرّيتها باعتباره معتقدا سائدا منذ الأزل، لهذا ترسم الروائيات لأنفسهن من خلال الكتابة مسارات تجاوزية للسلطة الفعلية والرمزية لثقافة الإرث الأبوي الذي أولته الأنظمة السياسية والاجتماعية والأيديولوجية والعادات والتقاليد أهمية مكنته من بسط نفوذه وقوته هنا "يتحول معنى الرجل من مجرد شخص بسيط إلى مستوى الصراع مع نظام معرفي وتركيبة نفسية وذهنية سادت فيما يطلق عليه المجتمع الأبوي. حيث تتبوأ المرأة الهامش والأدوار الثانوية المكملة لنشاطات الرجل الأساسية. والصراع هنا يقوم على أساس واحد هو: التملك. فما دام الرجل يملك المرأة، والمجتمع يثمن ملكيته تلك، فعلى المرأة أن تعكس هذا النظام أو تقوم بتبديل الأدوار داخله" (معتصم، 2004: 25). من خلال رفضها لهذا المعتقد السائد والقابع في المجتمع.

كان على الأنثى أن تحمل شعار الحرية والتحرر، والخروج من السجن الذكوري بفكرها ووعيها بأن وجودها وكيانها يتجسدان من خلال الوقوف جنبا إلى جنب مع الرجل، وليس الرضوخ له تحت مسمى الأعراف والتقاليد، فقد "أضحت النظريات النسوية ضليعة بما فيه الكفاية لخوض المعارضة الحقيقية التي تكنها للمؤسسة الأبوية والذكورية" (بكاي، 2019: 30). أي إنّ وعي المرأة بأن وجودها يتجسد في تخلصها من السلطة القمعية، و"لأنه لم يكن بمقدور المرأة أن تكون حرة في تصرفاتها في التاريخ البشري كله، بسبب كونها كائنا يعيش بغيره لا بذاته، أو مرآة عاكسة لحياة الرجل، تتحرك بإرادته وحدها فإنه لم يتح لها المجال الإبداعي لممارسة وعيها الخاص وقيمها الإنسانية الثقافية الذاتية بطريقة مستقلة متحررة، كما أتيح المجال للرجل" (لمناصرة، 2008: 65). بمعنى أنّ الأنثى تدرك أن تبعيتها للرجل ما هي إلا إقصاء لها، وليست حماية كما كانت تعتقد، فالعلاقة بين الرجل والأنثى قائمة على مبدأ التكامل، على عكس ما غرسته الأعراف في الفكر الإنساني.

عمدت الأعراف منذ أزمنة بعيدة إلى تهميش المرأة وجعلها في مرتبة دونية بعد منحها السلطة للذكر، ونفي "وجودها الاجتماعي كإنسان والوقوف بوجه كل محاولة لتحريرها، حتى عند رفع شعار تحرير المرأة. هذا المجتمع لا يعرف كيف يعرف ذاته إلا بصيغة الذكورية وصفتها. ليس للأنوثة من وظيفة فيه إلا تأكيد تفوق الذكر وتثبيت هيمنته. من هنا كانت العقبة المركزية في وجه التغيير الديمقراطي الصحيح في هذا المجتمع. في غياب المساواة بين الرجل والمرأة " (شرابي،

1992، : 16). فرغم التقدم الحضاري والفكري إلا أن المجتمع لا يزال يصر على ميل الكفة اتجاه الرجل بكل أنواع سلطته القهرية، ما منحه الحق لتهميش الأنثى وإلغاء وجودها فما كان عليها إلا أن "خلخلت بشكل غير معهود المألوف الذكوري وما أسسه طيلة قرون من أنظمة وأنساق أو سلطان ومعيارية" (بكاي، 2019: 33). وذلك بتأسيس حركات نسوية عبرت عنهن وعن حقوقهن ووجودهن فكانت مواجهة "للحقائق الغاشمة التي أصلها الرجل، وما هذه المقولات إلا للحد من تعسفه والخروج من دوامة الذكوري التي شغلت حضور الأنثى داخل قلاع الفكر من خلال الضرورات التاريخية والتحليلات المتعالية" (بكاي، 2019: 31). سعت الأنثى لبناء ذاتها من خلال فهم الوجود الإنساني والغوص في أعماق الفكر، فإذا "كان بناء الذات الذكورية في الثقافة الأبوية يتم عبر الإفصاح عن أشكال الاختلاف الجنسي مع المرأة: القوة في مقابل الضعف، الفحولة في مقابل الأنوثة، الصلابة في مقابل الهشاشة، العاطفية في مقابل العقلانية، فإن بناء الذات الأنثوية، على خلاف ذلك، يقوم على استعادة سلطة التمثيل، وإعادة توجيهها للإفصاح عن هوية الذات وبناء حياتها، خارج منطق التقابلات الثنائية النمطية الذي تفرضه سياسات الجنس" (بوعزة، 2017: 36).

فبناء الذات الأنثوية تشكل من خلال هذا الوعي، وتحررها من كل أنواع السلطة القمعية الكابحة لتقدمها وفاعليتها، فتأسست ذات الأنثى من خلال إثبات سلطتها في مقابل السلطة الأبوية "وقد عانت بما يكفي لتشكيل الصياغات المحورية والمفردات والمفاهيم والقضايا الرئيسة داخل كتابتها المتحولة من نمط الكتابة التقليدية المتعايشة مع الكتابة الذكورية، إلى نمط جديد يبحث عن الحرية، ويمارسها من خلال التمرد، ورفض المساواة الإبداعية الخادعة تحت سقف الوعي الذكوري المهيمن" (لمناصرة، 2008: 75). هذا الوعي المهمش للمرأة لم يكن ليزاح إلا من خلال التمرد و"تحقيق حقوق النساء الإنسانية غير ممكن من دون قلب موازين القوى وإبادة المؤسسات البطريكية بكافة تداعياتها" (الجهني، 2015: 146). أي إنّ خروج الأنثى من البوتقة الأبوية مكنها من الظهور في الساحة الثقافية والسياسية والاجتماعية.

استطاعت المرأة أن تثبت ذاتها ووعيها بهويتها الأنثوية من خلال إعلاء صوتها وإثبات وجودها بكتابة أنثوية "تطلعت إلى الشك في معطيات الثقافة الأبوية، وإعادة النظر بالوعي الناقص الذي لازمها عبر التاريخ، فروج لصلاحيتها الأبدية، ثم سحب الثقة عن المسلمات القابعة في ثناياها، وإبطال مبدأ الهيمنة القابع في مفاصلها الأساسية" (إبراهيم، 2011: 101). فالأنثى مؤمنة بأن مشاركة الرجل في الحياة يعطي لها أهمية وقيمة تجعل من الآخر(الرجل) يسلم بهذه الفاعلية، وأن لها من الحق ما يخولها لتكون سلطة فاعلة في المجتمع من خلال "حواراتها المختلفة مع الآخر الرجل كشريك في الهموم الحياتية من جهة وكسلطة ذكورية مهيمنة قامعة للمرأة الباحثة عن التحرر من جهة ثانية، لتهتم الكتابة النسوية التي تشكلت في ظل حركات نسوية متعددة مسائل جوهرية في حياة المرأة، أهمها نقد القهر الاجتماعي الذكوري الموجه للنساء" (لمناصرة، 2008: 74). فبحثها عن التحرر جعلها تسترجع ذاتها المسلوبة بإبداع فني عبرت به عن مسكوت عنه طيلة أزمنة.

نلمس في رواية "جميلة طلباوي" عدة ملامح لتحدي أشكال السلطة الأبوية المتجسدة في علاقة المرأة بالرجل، وإثبات وجودها، مبدية فاعليتها في المجتمع ومشاركتها في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية.

إن المجتمع الجزائري -كغيره من المجتمعات العربية- تحكمه العادات والتقاليد، ينظر للمرأة نظرة تهميش، ويمنعها من ممارسة بعض الهوايات واتخاذ الكثير من القرارات، كما يمنعها من العمل في بعض المناصب التي تُعدّ حكرا على الرجل؛ ونلمح ذلك في شخصية "وهيبة" التي كانت تطمح لممارسة عدة هوايات، تقول "طلباوي": "تمنت لو مارست رياضة كالسباحة أو التنس لكن بيئتها الاجتماعية لم تساعدها لتحقيق أحلامها التي كانت تعيشها في الأفلام، فترى نفسها بطلة الفيلم وتحلم ببيئة تختلف عن زقاق عمي سالم" (طلباوي، 2008: 160). أي إنّ بيئة "زقاق عمي سالم" لم تحقق أحلام "وهيبة" ولم تمنحها الحرية التي تجعل منها امرأة مستقلة تمارس ما تحب دون قيود، وهو ما جعلها تغادر ولايتها متجهة نحو العاصمة. "وهيبة غادرت مبكرا في رحلة بحث عن وظيفة بدأتها منذ أربع سنوات، منذ تخرجها وكلما قابلت مدير مؤسسة إلا وتحرك الذئب الجائع فيه، لقد باتت تعتقد بأن جمالها لعنة...كل شيء من حولها بدأ بالإحباط واليأس ولم تعد ترى من حل سوى الخروج من دائرتها الضيقة من زقاق عمي سالم، بل من مدينة بشار" (طلباوي، 2008: 105). قررت وهيبة الخروج عن إطار هذه السلطة التي لم تمنحها سوى التعاسة، متجهة إلى عالم التحرر والانفتاح الذي سيجعل منها سيدة نفسها متحدية كل العوائق لتغادر بعدها أرض الوطن إلى دبي، حيث ستجد نفسها الضائعة، وتحقق سلطتها في مقابل تحدي السلطة الأبوية. ولعل "قهر المرأة المثقفة اجتماعيا ونفسيا بشكل أساسي، هو الذي أشبع الكتابة النسوية بتجارب حياتية مليئة بوعي المرأة المأساوي، وهي تتصور نفسها ابتداء من اللاوعي المتشكل في تجربة القتل غسلا للعار، ومرورا بوأد البنات، والسبي واستعباد النساء، وتحويل الجسد للمتعة في سباق الجواري، وازدواجية احتقار الجسد وتقديسه، وحرمان المرأة من المواقع الوظيفية الحساسة...الخ" (لمناصرة، 2008: 75). كل هذه الظروف جعلت من "وهيبة" تفتح باب الهروب من المجتمع، ومن الحال التي آلت إليها.

اختارت الكاتبة هذه الشخصية المتمردة لتؤكد من خلالها فكرة أن تحرر المرأة لا يعني خروجها عن أعراف الدين، فزواجها السري من رجل الأعمال منحها حرية مؤقتة وسعادة لم تدم، بل دمر حياتها وجردها من قيمها، إذ فقدت عائلتها وتغيرت نظرة المجتمع لها، فالكاتبة تؤكد أن العدول عن القيم والأخلاق جعل وهيبة تدفع ثمن ذلك بضياع حياتها وفقدان كيانها.

خاتمة

يمكن أن نستخلص من الدراسة جملة من النتائج نحصرها في الآتي:

- تتجسد كتابة الأنثى في الرواية من خلال الواقع اللغوي للمكون السردي الذي يتجلى في علاقة الشخصيات بعضها ببعض وتفاعلها فيما بينها.
- تفرز الشخصيات مكامن هوية الأنثى وعلاقتها بالواقع الاجتماعي الذي تعيشه، فعالم الشخصيات معادل موضوعي للذات الأنثوية.
- تحدي السلطة الذكورية لدى الأنثى كان محاولة لإثبات الذات من خلال الخوض في جل القضايا التي تمس المجتمع الإنساني.

- الخوض في القضايا الاجتماعية يثبت وعى الأنثى بفاعليتها في هذا المجتمع.
- مزجت جميلة طلباوي في مخيالها السردي بين حضارتين؛ من خلال فكرة زرع قلب إسباني داخل جسد عربي جزائري.
- تحدي السلطة الأبوية والوقوف في وجه المجتمع المسيطر لا يعنى بالضرورة التخلي عن المبادئ والدين.
- يمكن لهذا المقال أن يقدم توصية للباحثين المقبلين على دراسة الرواية النسائية وتتعلق بمدى اقتران الأنثى الكاتبة بالواقع المعيش ضمن تصور فكري ثقافي لا يقف عند حدود وصف الواقع، وإنما يتخطاه إلى آفاق كيفية تفكير الأنثى في هذا الواقع.

قائمة المصادر والمراجع

1. أحلام فاتح. (2021). الهوية الأنثوية وانفتاحها على الواقع العربي دراسة في أعمال الروائية سمر يزبك". التبيان، 1(1).
2. جميلة طلباوي. (2008). قلب الإسباني (الإصدار 1). سطيف: منشورات الوطن اليوم.
3. حسين لمناصرة. (2008). النسوية في الثقافة والإبداع (الإصدار 1). الأردن: عالم الكتب الحديث.
4. ريمة لعواس. (2020). سؤال الذات و الهوية في الكتابة النسائية من منظور الناقد محمد معتصم. مجلة القسم العربي(27).
5. صالح مفقودة. (2008). المرأة في الرواية الجزائرية. الجزائر: دار الشروق للطباعة و التوزيع.
6. عبد اللّه إبراهيم. (2011). السرد النسوي الثقافة الأبوية، الهوية الأنثوية، والجسد. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
7. عوادى صالحة. (2018). تموقع الكتابة الأنثوية في ظل مجتمع ذكوري أحلام مستغانمي أنموذجا. مجلة(لغة - كلام)، 4(3).
8. محمد معتصم. (2004). المرأة والسرد (الإصدار 1). الدار البيضاء: دار الثقافة.
9. محمد بكاي. (2019). جدل النسوية فصول نقدية في إزاحة الدوغمائيات الأبوية. الجزائر: منشورات الاختلاف.
10. محمد بوعزة. (2017). تمثلات الهوية النسوية في رواية "دنيا" لعلوية صبح. مجلة تبين(20).
11. ملاك إبراهيم الجهني. (2015). قضايا المرأة في الخطاب النسوي المعاصر(الحجاب أنموذجا) (الإصدار 1). بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات.
12. هشام شرابي. (1992). النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي (الإصدار 1). (محمود شريح، المترجمون) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.